إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات **ديسمبر ٢٠٢٢م**

جمال التوبة

من أجل البشرية الشريرة، اتخذ ربنا طريقه في العالم، في الواقع، لكي يجمع أولئك الذين ضلوا من بيت أبيه. لقد وجه طريقه إلى الخطاة لكي يعيدهم، وبحث عن الضالين لكي يجدهم مرة أخرى. إنه في غيرته ترك الذين وجدهم وسعى وراء الضالين: لقد تخلى عن الكاملين وحافظ على الشركة مع التائبين. لقد دعاه الناس مع الخطاة، وفرح هو بذلك. لقد كانوا يطلقون عليه رفيق العشارين والزناة. لقد حمل الضمادات ولم يظهر الحب لأحد إلا للمكسورين. الطبيب الصالح لم ينزل لرعاية الأصحاء، لأن المرضى فقط كانوا بحاجة إلى مساعدته. من ليس ميتاً ليس لديه حاجة إلى القيامة، ولا لزوم للغفران لمن لم يخطئ. من هو مكسور يطلب أن يتم وضع ضمادة عليه، والشخص المصاب يتصل بالطبيب للشفاء. دواء الجروح التقرحية ينطبق فقط على الجروح التقرحية. لا يتم البحث عن وصفة طبية للمرض من قبل أي شخص إلا من قبل المرضى. فقط مكسور القلب يحتاج إلى التشجيع، وبالمثل، تكون التعزية ضرورية للحزين في الروح وحده. يحتاج الشخص الذي يعاني من القرحة للأدوية، ومع الشفاء، سيكون لديه راحة لقروحه. الشخص المديون بالكثير يحب كثيراً ذاك الذي هو مديون له، لأن روحه معلقة على الغفران، الذي هو في أمس الحاجة إليه. إن دواء الرحمة لن يطبق بشكل مفيد إلا على الشخص الذي أصيبت روحه بالإثم والذي يعاني من الجرح. الشخص الذي ضربته الخطيئة والذي ينوح بحكمة يشعر بالحاجة إلى الطبيب الذي سيضع علاجاً. الشخص الذي اخترق سهم الشر أعضاءه يبحث عن الرحمة التي من شأنها أن تستخرج رأس السهم الخاص بشهوته. الشخص الذي سقطت عليه الخطية مثل الأسد، يبحث عن الشفقة الإلهية التي من شأنها أن تنقذه من الدمار.[٤]

من منا لم يقع أو لا يقع في الخطيئة كل يوم، طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بدون وعي، عن علم أو عن غير علم؟ من منا لم يغضب الرب، الذي هو الحق والمحبة اللامتناهيين؟ من منا لم يصب بشفرة الخطيئة ولم يشعر بقسوة الخطيئة وحدتها، وإحراج شديد للضمير والحزن والضيق، تلك التي هي توابع شهيرة للخطيئة؟ جميعنا، صغاراً وكباراً على حد سواء، خطاة أمام الله، ولهذا السبب نستحق العقاب والانفصال عن الله. ولو أن الرب، انطلاقاً من محبته ورأفته اللامتناهيتين تجاه الإنسان الساقط، لم يعطِ توبة ومغفرة للخطايا من أجل ذبيحة صليب ابنه الوحيد، لكان جميع البشر قد نزلوا إلى الجحيم، إلى مكان العذاب الأبدي.

[٤] القديس يعقوب السروجي: عظة عن زكا العشار

ولكن، المجد لله الصالح والحكيم، الذي أعطى التوبة للخطاة، والحياة الأبدية. لقد غسل عدد لا يحصى من الخطاة أنفسهم بدموع التوبة، وتم تبريرهم وتقديسهم من خلال دم يسوع المسيح الأكثر نقاء، حمل الله الذي أخذ خطايانا على نفسه وعانى من أجل الخطاة كل العقاب الذي أُعد لنا، والآن هم يفرحون مع الملائكة في منازل القديسين. جميعكم الحاضرون هنا، خطاة مثلي، هل تعتزون بعطية الرب التي لا تقدر بثمن، عطية التوبة؟ هل تتنهدون مثل العشار، هل تبكون مثل المرأة الخاطئة، هل تغسلون فراشكم بدموعكم، مثل داود أبينا؟ هل تعودون إلى الآب السماوي بتوبة صادقة وعميقة، كما فعل الابن الضال.

لا توجد طريقة أخرى للخطاة لاستعادة نعمة ورحمة الآب السماوي غير طريق التوبة الصادقة والحقيقية، جنباً إلى جنب مع ثمار التوبة. دعونا نستيقظ من نوم الخطية، دعونا نسلك بشكل صحيح، كما في النهار (رو ١٣: ١٣)؛ دعونا نترك شهوات الجسد، دعونا نعتني بأرواحنا غير المائتة، دعونا نبدأ في أداء أعمال الرب. ثم دعونا نفرح بسلام الروح وعزاء الضمير النقي. كم هو رحيم وسريع السمع هو أبونا، سيدنا وقاضينا، الله! إنه يسارع على الفور برحمته الوفيرة إلى كل خاطئ يتوب بإخلاص، ويخلصه من المتاعب والأحزان والمخاطر التي تنتج عن الخطيئة، ويعطيه السلام وانفتاح القلب، ويحول الحزن إلى فرح. كل خاطئ تاب بإخلاص قد اختبر هذا.

لكي نفهم قوة وجمال التوبة، علينا أولاً أن نشرح حالة الخاطئ وكيف يشعر. هذه هي السمات العامة المميزة للخاطئ. يتم عرض السمات الخاصة بلرجل الذي حرم نفسه من النعمة على النحو التالي. بعد أن يبتعد الإنسان عن الله، يصبح مرتكزاً على نفسه ويضع نفسه كهدف رئيسي لحياته ونشاطه كله. هذا أمر مؤكد، لأنه بعد الله لا يوجد شيء عظيم للإنسان أكثر من نفسه. فبعد أن سبق ونال ملء النعمة، وبعد أن أصبح الآن فارغاً بدون الله، فإنه يكون في عجلة من أمره ويهتم بكيفية وبأي وسيلة يمكنه ملء هذا الفراغ الموجود بداخله. هذا الفراغ، الذي تشكل فيه نتيجة السقوط بعيداً عن الله، يشعل فيه رغبة مستمرة لا يمكن لأي شيء أن يشبعها؟

تكون هذه الرغبة غامضة، ولكنها ثابتة. يصبح الرجل هاوية لا قاع لها. إنه يحاول جاهداً ملء هذه الهاوية، لكنه لا يستطيع. هذا هو السبب في أنه يبقى طوال حياته في عرق وكدح ومتاعب كبيرة. إنه مشغول بأشياء مختلفة على أمل أن يجد شبعاً لهذه الرغبة الشديدة التي تستهلكه. هذه الأشياء تشغل كل اهتمامه، وكل وقته، وكل نشاطه. إنها خيره الأسمى، الذي كرس له قلبه كله. ومن هنا يتضح لماذا لا يمكن للرجل الذي يضع نفسه كهدف رئيسي لحياته أن يكون داخل نفسه. إنه يركز دائماعلى أشياء خارج نفسه: على الأشياء التي تم خلقها أو ابتكارها كنتيجة لغروره الخاص من أجل ملء شغفه. لقد سقط بعيداً عن الله، الذي هو ملء كل شيء. إنه فارغ في نفسه. الشيء الوحيد المتبقي هو أن يبعثر نفسه بين مجموعة متنوعة لا نهاية لها من الأشياء وأن يعيش من خلالها. لذا يكون الخاطئ عطشاناً وقلقاً ومضطرباً بشأن أشياء كثيرة ومتنوعة منفصلة عن نفسه ومنفصلة عن الله. هذا هو السبب في أن السمة المميزة للحياة الخاطئة، عندما يهمل المرء خلاصه، هي القلق والمتاعب بشأن أشياء كثيرة.

تعتمد الفروق الدقيقة والسمات المميزة لهذه المشاكل من جهة أشياء كثيرة على نوع الفراغ الذي يتشكل في الروح. إن فراغ العقل - الذي نسي الله الذي هو كل شيء - يولد قلقاً من جهة المعرفة المفرطة: أي الكثير من التدقيق والفضول وحب الاستطلاع. إن فراغ الإرادة - التي حرمت نفسها من الله الذي هو كل شيء - ينتج رغبات عديدة: السعي إلى امتلاك أشياء كثيرة أو حتى كل الأشياء، بحيث يمكن أن يكون كل شيء تحت سلطان المرء ووفقاً لإرادته الخاصة. هذا هو حب الممتلكات الدنيوية. إن فراغ القلب الذي حرم نفسه من البهجة الحقيقية في الله الذي

هو كل شيء يولد عطشاً للعديد من الملذات الزائفة المختلفة والبحث والسعي وراء تلك الأشياء التي لا تعد ولا تحصى التي يأمل المرء أن يجد فيها المتعة الحسية، داخلياً وخارجياً. لذلك، يستمر الخاطئ باستمرار في مشاكله وقلقه، وفي بحثه عن المعرفة المفرطة، والعديد من الممتلكات، والملذات المتنوعة. إنه دائماً مسرور بالأشياء الخارجية، ويكتسب باستمرار الممتلكات، ويدقق في الأشياء ويختبرها. إنه يدور في هذه الحركة الدائرية طوال حياته. هذا الفضول يجذب العقل ويغريه. يأمل القلب في تذوق الأشياء الحلوة. وتكون الإرادة محمولة بعيداً.

وهنا تأتي قوة التوبة الشافية، وتستنير النفس عندما تقترب من التوبة، وتجري لتحقق جمالها السابق الذي كان قد فسد، لذلك عندما يتجه الخاطئ نحو الله ويتوب: فإنه أولاً يستيقظ من نوم الخطيئة، ثم يأتي إلى بعض العزم على التغيير (إنه ينهض)، وأخيراً يلبس نفسه بقوة لحياة جديدة مع أسرار الاعتراف والإفخارستيا (إنه مستعد للعمل. في مثل الابن الضال ، يشار إلى هذه اللحظات بالطريقة التالية: أولاً، جاء إلى نفسه وهذا يعني أنه عاد إلى رشده وجمع نفسه. ثم قال: أقوم وأذهب بمعنى أنه ينوي التوقف عن طريقة حياته السابقة. ثم قام وذهب إلى أبيه وقال: لقد أخطأت. هذه هي توبته. ثم ألبسه الأب أفضل رداء له وهيأ له المائدة (الإفخارستيا المقدسة). لذلك، في عودة الخطاة إلى الله، هناك ثلاث حركات:

١. الاستيقاظ من نوم الخطيئة.

٢. القيامة، مع التصميم على ترك خطيئة المرء وتكريس نفسه لإرضاء الله.

٣. يلبس الخاطئ قوة من فوق من أجل مسألة إرضاء الله في أسرار الإعتراف والإفخارستيا.[٥]

دعونا بعد ذلك نتحلى بالشجاعة وننهض لأن لدينا إلهاً محباً، لا يتمنى موت خاطئ بل أن يتوب ويعيش. من لا يحبك، أيتها التوبة الحاوية كل الأشياء الصالحة، إلا الشيطان الذي يكرهك لأنكِ تنهبين ثرواته. أنتِ تدمرين ممتلكاته وتجعلينه معوزاً. أنتِ تعذبينه بجهود أعماله الباطلة وتفصلينه عن الورثة الذين لم يكونوا له ولكنهم كانوا أسرى له. هذا هو عدوكِ حقاً وفي كل لحظة تعارضينه. لا يوجد أحد سقط بين يديه، وبمجرد أن أمسكتِ به، أصبح فريسة مرة أخرى للشيطان للحصول على الطعام. لا يوجد أحد دعاكِ بينما كان بين أسنان الشيطان دون أن تكسري أسنانه وتنقذيه. لا يوجد أحد ابتلعه الشيطان وتوسل إليكِ من بطنه، دون أن تمزقي بطنه وتخرجيه. لا يوجد أحد أسره الشيطان في شباكه عندما لم تكوني قريبة ودعاكِ، دون أن تكوني قد قطعتي روابطه بسرعة وحررتيه. لا يوجد أحد اختطفه الشيطان وأنتِ بعيدة، ونادى عليكِ، دون أن تكوني قد أمسكتي به وأنقذتيه على الفور. بسبب كل هذه الأشياء ، يكرهك الشيطان لأنك كرهتيه بشدة. إنه يكرهكِ لأنكِ في جميع الأوقات تقفين ضده. إنه يكرهكِ لأنه عدو واهبك. وأنتِ تعارضينه كما يعارضه ربك نفسه، الذي هو خصمه. لا يوجد أحد لجأ إليكِ ثم نزل إلى الهاوية، ولم يصعد أحد إلى السماء دون أن يكون لكِ. من رأى الله بدونكِ؟ ومن أمسك بكِ وسقط في يد الشيطان؟ من الذي تطهر إلا إذا كنتِ قد غسلتيه؟ ومن اقترب من حوضكِ ووُجد فيه أي شيء نجس؟ من منا لم يسقي بذوره من مطركِ دون أن يحصد منها ذرة فرح؟ من هو الذي تقدم بطلب للحصول على علاجكِ ولم يوجد بعيداً عن كل الأسقام؟ من هو الذي لم يقترب من بابكِ وفيه وجد مكان صحي؟ من الذي يُبلل في كل الأوقات برذاذك ولم ير الله في قلبه؟ من لم يتذوق مشروبك ولم يصبح قلبه مصدراً للظلمة؟ من الذي تلقى طلبه دون أن تتحدثي أنتِ نيابة عنه؟ ومن الذي

[٥] القديس ثيئوفان الناسك

استقبلك من خلال التماسه ولم يفتح بذلك باب كنوز الله؟ لا يوجد أحد أخذكِ معه للمعركة دون أن تكوني قد سلمتي أعداءه إلى سيفه. لا يوجد أحد قد لبسكِ أمام خصمه دون أن يهزم من يكرهونه أمامه. لقد خلصتي داود الذي أخطأ. لقد صدر توبيخ ضد أهل نينوى، لكنكِ تصرفتي بقوة وقمتي وخلصتيهم. أنتِ مباركة، يا أم الغفران، أنتِ التي أعطانا إياها الآب الممتلئ بالرحمات: إنه لا يقاومك عندما تتوسلين إليه لأنه وضعكِ مدافعاً عن الخطاة. إنه لا يغلق بابه عندما تطلبين، لأنه عهد إليكِ بمفاتيح الملكوت. في الواقع، لقد اقترب الملكوت: توبوا. هذا هو الختم الذي يأخذه ورثة الملكوت معهم: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات! خذوا توبة معكم، لئلا تصبحوا غرباء عن الملكوت!" له المجد من الجميع، إلى أبد الآبدين![٦]

[٦] القديس يوحنا الدلياثي (الشيخ الروحي)، عن التوبة